دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: التراث العمراني للبلدة القديمة بمدينة العلا و الحفاظ عليه
المصدر: أدوماتو
الناشر: مركز عبد الرحمن السديري الثقافى
المؤلف الرئيسي: الزهراني، عبدالناصر بن عبدالرحمن
المجلد/العدد: ع17
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 2008
الشهر: يناير / محرم
الصفحات: 37 - 59
رقم MD: 658735
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: HumanIndex
مواضيع: التراث الحضاري ، التراث المعماري، حماية التراث ، العلا، السعودية
رابط: http://search.mandumah.com/Record/658735

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

التراث العمراني للبلدة القديمة بمدينة العلا والحفاظ عليه

عبدالناصر بن عبدالرحمن الزهراني

ملخص: تشكل حماية التراث العمراني حفاظاً على خصائص المناطق التراثية، لما تحمله من قيم تاريخية وثقافية واجتماعية واقتصادية، تعد ملكاً للأجيال القادمة. فثمة مخاطر ومهددات طبيعية وبشرية يتعرض لها التراث العمراني في البلدة القديمة في مدينة العلا، تتمثل في عوامل التعرية، وإنشاء الطرق الجديدة، المرتبطة بتطور مدينة العلا وتنميتها، بإضافة إلى هجر البلدة واهمالها وتعرضها للتداعي، وقلة الوعي لدى المجتمع المحلي، كلها عوامل أسهمت وساعدت في تدهور هذا الموقع التراثي وتدميره. إن الحفاظ على التراث العمراني، في البلدة القديمة وصيانته تتطلب إنتهاج سياسة الحافظ المتكامل المتمثل في اتباع برنامج إدارة المواقع، وتضافر الجهود الرسمية والشعبية (المجتمع) وتكاملها، مع تبني الاستدامة العمرانية للنسيج العمراني وفق استخدامات جديدة بعد تأهيله، مع اتباع الآليات والوسائل الفاعلة التي تحقق الغاية المنشودة من سياسة الحفاظ. لقد اعتمدت منهجية البحث بصورة رئيسة على المسح الميداني والمنهج التحليلي، إضافة إلى الرجوع إلى المصادر والمراجع التي تناولت موضوع البحث.

Abstract: The conservation of the architectural heritage constitutes protection of its traits and characteristics in terms of its historical, cultural and socio-economic values, which are considered as property for the future generations. The natural and human risks, that had been seen in the construction of the new-Al Ula pave road that damaged part of the site under consideration, the erosion, the evacuation of the site and the lack of awareness of the local community towards the cultural heritage had all played a major role in the destruction of the site. The protection and preservation of the «Old Al Ula Site» requires an integrated conservation policy, which includes, site management program, integrated formal and non formal efforts, as well as sustainable architectural program, together with an efficient mechanism and procedure that realized the aim of the adopted conservation policy. The research depends chiefly on the field survey and the annual visits to the site, together with the analytic approach and referring to the available published sources on the topic.

أهمية التراث العمراني والحفاظ عليه

تمثل مواقع التراث العمراني التاريخية ومعالمه شاهداً حياً على أصالة العمران وعراقته وارتباطه الوثيق بالبيئة المحلية والعادات والتقاليد المتوارثة؛ فهو يشكل عنصراً ومكوناً مهماً من عناصر الهوية الثقافية والمعمارية. كما أنه يمثل ذاكرة الأمة بكل ما فيها من أحداث على مر التاريخ، تأثرت بالظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية؛ فهو يعكس عمق التفاعل الإيجابي مع البيئة المحيطة.

يشير ميثاق البندقية (١٩٦٤م)، الذي يعرف بالميثاق الدولي لصيانة وترميم المعالم التاريخية والمواقع، في مادته الأولى الخاصة بالتعريفات، إلى أن مفهوم المعالم التاريخية يشمل الأعمال المعمارية، وما يحيط بها من دلائل حضارية أو حدث تاريخي. وقد عرّفت منظمة إيكموس (ICOMOS 1996) التراث على أنه: مفهوم واسع، يشمل البيئتين الطبيعية والثقافية، المواقع الطبيعية والأماكن التاريخية التي تتضمن المباني والمنشآت والمواقع والبيئات (لين ١٩٩٧: ١٧). فتعريف التراث العمراني يندرج تحت المفهوم الواسع للتراث. وقد عرّفت الغرفة التجارية الصناعية بالرياض التراث أنه: تلك المباني المعمارية الشاخصة فوق سطح الأرض، التي قام الإنسان بإنشائها وعمارتها، وتشمل القصور والمباني التاريخية والقرى والأحياء التراثية ومراكز المدن القديمة

العدد السابع عشر محرم ١٤٢٩هـ - يناير/كانون الثاني ٢٠٠٨م
(ص ص ٣٧-٥٨) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

(الغرفة التجارية الصناعية بالرياض ١٤٢٤هـ).

تتجسد أهمية الحفاظ على التراث العمراني في الأهمية التاريخية والثقافية والاجتماعية والحضارية، التي يعكسها التراث العمراني في حياة الأمم والشعوب وتاريخها. فدراسة التراث العمراني والحفاظ عليه يعدّ أمراً حيوياً من أجل الحاضر واستشرافاً للمستقبل. فماضي أي أمة هو تراثها وحضارتها، وأي انقطاع للماضي يؤثر سلباً على الحاضر والمستقبل. فبقاء الشواهد والمعالم التاريخية والمعمارية يعد بقاء لتاريخ الأمة الحضارية وتراثها، ولهذا تحتل قضية الحفاظ على التراث العمراني مكاناً متقدماً في قائمة القضايا التي تهم دول العالم (البنا «د. ت»: ٢٣).

تبرز أهمية التراث العمراني في مجالات عديدة، منها: الجانب الحضاري والعلمي والاقتصادي والاجتماعي. فمن ناحية حضارية، يجسد التراث العمراني هوية الأمة التاريخية وحضارتها على اختلاف المواقع والأماكن؛ أما من الناحية العلمية، فالتراث العمراني يضم بين ثناياه الكثير من الأسس والمبادئ العمرانية التي لابد من الوقوف عندها واستقرائها والقياس عليها، للمساعدة في تطوير البيئة العمرانية المعاصرة على مستوى المدن والتخطيط العمراني، وعلى مستوى مفردات العمارة، كالمساجد والمنازل والشوارع والأزقة والأسواق؛ فالنماذج العمرانية التاريخية تشكل أحد أهم مصادر المعرفة والقياس في مجال علوم العمران. أما من المنظور الاقتصادي فالسياحة الثقافية الممثلة في التراث العمراني أصبحت تشكل عنصر جذب سياحي مهماً، فالمناطق التراثية أصبحت اليوم، تمثل مورداً رئيساً للإطلاع والترفية والتنزه، ما ينعكس إيجابياً في منافع اقتصادية عديدة للسكان المحليين. أما من المنظور الاجتماعي فالتراث العمراني يعود بالمنافع الاجتماعية والاقتصادية للسكان المحليين، فهو يعمل على تنمية روح الانتماء والهوية لديهم؛ فالاستثمار السياحي في مواقع التراث العمراني يعني إعادة الحياة إلى المواقع والمباني التاريخية، ما يساعد على ربط المجتمعات بتراثها وثقافاتها وله دور مهم في تواصل الأجيال.

يعدّ التراث العمراني أحد أهم جوانب التراث الحضارية في المملكة العربية السعودية، لما يبرزه من صور أصيلة عن حضارتها، ولكونها ترجمة صادقة لكل ما وصلت إليه في تاريخها من تقدم في مجالات الحياة المتعددة. فالمملكة غنية بتراث عمراني أصيل، في مختلف مناطقها، يعكس سماتها التاريخية والحضارية. فالمحافظة على التراث العمراني الذي أقامه الأجداد والآباء مطلب وطني وواجب نعتز به (وزارة الشؤون البلدية والقروية ١٤١٩هـ: ٢٠).

ولأهمية التراث العمراني في حياة الشعوب، فقد سعت الكثير من دول العالم للإبقاء على صلة بتراثها وتاريخها، لقناعتها بأهمية هذا الإرث التاريخي في صياغة مستقبلها. وقد نشطت في الآونة الأخيرة حركات إعادة إحياء التراث العمراني، فكثير من المجتمعات تؤكد بأن تيارات التطوير والتغيير بدأت تهدد بقطع الصلة بالماضي تراثياً، وهو ما ينبئ بفقدان التوازن الحضاري في تلك المجتمعات، فاستنفرت جميع الجهود على مختلف المستويات الوطنية لإعادة إحيائها لحمايته، بكافة أبعاده التاريخية والوطنية والاجتماعية والثقافية والجمالية والوظيفية (السواط ١٤٢٤هـ).

ما سبق بيانه من أهمية للتراث العمراني في المجالات المتعددة يشكل مدخلاً مناسباً لإدراك أهمية الحفاظ على التراث العمراني بالبلدة القديمة (الديرة) بالعلا. فالحفاظ على المعالم المعمارية والتاريخية فيها هو حفاظ على تاريخ الأمة، وحفاظ على المعين الذي تستسقي منه الأجيال القادمة ثقافتها وحضارتها وانتماءها الحضاري. فالتراث العمراني، بالبلدة القديمة في العلا، يعدّ كنزاً حضارياً ثميناً، إذ يشكل شاهداً شاخصاً على الإبداع الإنساني ورؤاه الفنية. والحفاظ على معالم البلدة القديمة المعماري وصيانته ما هو إلاّ صيانة لتراث الأمة، فالتراث هو خير لبنة لبناء صروح وحدة الأمة.

وتأتي أهمية الحفاظ على التراث العمراني، بالبلدة القديمة في العلا، من أنها مدينة تاريخية تحمل في طياتها الفن المعماري بعمقه التاريخي. فالتراث العمراني، بالبلدة القديمة في العلا، بأصالته ونسيجه العمراني المتميز ومكونات عناصره الجمالية المتفردة هو فخر للأمة ولتراثها

ولحاضرها ومستقبلها؛ ولذا فإن أهمية توثيقه وترميمه والمواظبة على صيانته وحمايته تشكل أهم عناصر الحفاظ على قيمه المعمارية والتاريخية والفنية والجمالية.

أسباب الهجر والإهمال للتراث العمراني

نتيجة التحولات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي شهدها العالم، بعد الحرب العالمية الثانية، تعرض التراث الحضاري، وخاصة المدن والمباني التاريخية، للهجران والإهمال، ما أدى بها إلى الدمار والخراب والتداعي.

وبالنسبة للمملكة العربية السعودية فإن الطفرة الاقتصادية والتنمية التي شهدتها البلاد في جميع المجالات، خلال سبعينيات القرن الماضي، ومنها المجال العمراني، الذي شهد بدوره نمواً سريعاً، ومع التقدم والازدهار والاهتمام بتوفير المسكن الحديث، وتخطيط الأراضي في المدن والقرى، تم هجر العديد من المباني التقليدية (العمارة التقليدية) إلى المخططات والمباني الحديثة، كما هو ماثل في البلدة القديمة في العلا، الأمر الذي جعل معالم التراث العمراني تتعرض للانهيار والزوال. وفي هذا الإطار، يأتي هذا البحث بوضع سياسة للحفاظ تعمل على وضع الآليات والسبل التي تعمل على حماية هذا التراث الإنساني المنفرد ببلدة العلا القديمة في محافظة العلا وحمايته والعمل على وقف تدميره وإزالته.

مفهوم الحفاظ على التراث العمراني

يعدّ الحديث عن الحفاظ على المدن والمباني والمعالم التاريخية استدعاءً لمترادفات عدة. ففي اللغة حافظ يحافظ محافظة وحفاظاً على الأمر، أي واظب عليه، وحافظ عليه صانه ووقاه، وحافظ عليه راقبه ورعاه. وحافظ على عاداته ثبت عليها ولم يغيرها، فهو محافظ. وحافظ الرجل على وطنه دافع عنه، والحافظ هو الصائن والواقي (الكرمي ١٤١١هـ: مادة «حفظ»). وحفظه حرسه، واستظهره ورعاه، والمحافظة المواظبة، والذب عن الشيء، والتحفظ التحرز (الفيروزآبادي ١٤٠٧هـ: مادة «حفظ»). وكذلك تأتي حِفْظ بمعنى مراعاة واحترام وتقيد بـ، وتنفيذ (البعلبكي ١٩٩٤: مادة «حفظ»). فإذا كان مصطلح الحفاظ (conservation) ارتبط، تقليدياً، بالترميم (restoration) والصيانة (preservation) فقط؛ فإن المفهوم الحديث اتسع ليشمل إضافة إلى الترميم والصيانة الآتي: المعالجة (treatment)، والاستقرارية (stabilization)، والحماية (protection)، والتقوية (consolidation)، والتوثيق (documentation)، والتسجيل (recording)، وإعادة تجميع العناصر المتناثرة (anastylosis)، والتجديد (renovation)، وإعادة الإحياء (rehabilitation)، وإعادة الإنشاء (reconstruction)، وإعادة التوظيف أو تطويع (recruited) و(re-allocation)، وإعادة الاستخدام (re-used)، والتأهيل (adaptation)، والارتقاء (upgrading) ليشمل المنطقة الأثرية وما يحيط بها، المناطق الأثرية وغير الأثرية، إذ يهتم بتطوير البنية الأساسية للمنطقة ككل. فمفهوم الحفاظ ومدلولاته أعم وأشمل، وقد يستخدم بديلا عن هذه كلها (الزهراني ١٤٢٩هـ).

وهناك نوعان من الحفاظ على التراث بشكل عام، حفاظ وقائي، بمعنى التعامل مع الوسط المحيط للأثر (البيئة، والرطوبة والحرارة والإضاءة، والفضاءات الخارجية... إلخ)، والحفاظ التدخلي، بمعنى إضافة شيء إلى الأثر، أثناء المعالجة، أو إزالة شيء منه (كرونين ١٤٢٦هـ: ٩٦-١٣١). ومن هذا المنطلق فإن الحفاظ على المباني التقليدية يعني التدخل بإضافة شيء إليه أو إزالة شيء منه، بأقل قدر من الإضافة أو الإزالة، فلا تزيد إلى الحد الذي نخسر معه ملامح الأصالة الباقية، ولا تقل إلى الحد الذي يمكن معه أن تتدهور حالة الأثر بحيث يستبدل به مبنىً جديداً (شاهين ١٤٢٨هـ: ١٠٤).

٢- أهداف البحث

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف التالية

١- إبراز الأهمية التاريخية، والثقافية، والاقتصادية، والجمالية لمعالم التراث العمراني بالبلدة القديمة بالعلا.

٢- حصر المخاطر والمهددات الطبيعية والبشرية التي تعمل على تدمير عناصر العمارة بالبلدة القديمة ومكوناتها.

٣- تبنّي أفضل الأساليب والطرق والآليات التي تعمل على الحفاظ على معالم التراث العمراني في البلدة القديمة.

٤- العمل على تفعيل القوانين والنظم والتشريعات العالمية والوطنية الخاصة بحماية المباني والمدن التاريخية.

٥- العمل على انتهاج سياسة المحافظة المتكاملة لمواقع التراث العمراني بالبلدة القديمة بالعلا ومعالمها.

٣- البلدة القديمة في العلا موقعها وتاريخها

موقع البلدة القديمة بالعلا

تقع العلا في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية، على درجة الطول ٥٨ َ٥٥ ً٣٧ ، ودرجة العرض ٢٩ َ٣٦ ً٢٦ . وترتبط إدارياً بالمدينة المنورة، وتبعد عنها ٣٢٠ كيلو متراً تقريباً في اتجاه الشمال. وتبعد عن الحجر (مدائن صالح) جنوباً ٢٢ كيلو متراً (اللوحتان ١ و٢)، وتقدر مساحتها بنحو ٢٥ كيلومتر مربع، ويقدر عرضها من ٢,٥ إلى خمسة كيلومترات (عبد الكريم ١٤١٤هـ: ٩).

وهي تقع وسط وادٍ يعرف بوادي القرى المشهور تاريخياً، الذي يصب في وادي الجزل ثم يصب في وادي الحمض، الذي بدوره يصب في البحر الأحمر (الأنصاري وأبو الحسن ١٤٢٣هـ: ١٢)، وتمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب، وتحيط

اللوحة ١: منظر جوي يوضح موقع الحجر في الشمال، وحرة العويرض في الشرق، وموقع دادان، والعلا القديمة، وقرح في الجنوب.

بها الجبال من الشرق والغرب، وقد أثرت عوامل التعرية في هذه الجبال، حتى اتخذت أشكالاً طبيعية، تصلح لأن تكون ضمن الموارد الطبيعية في المملكة العربية السعودية.

أما البلدة القديمة، مدار البحث، التي يطلق عليها الديرة، فتقع في أضيق نقطة في وادي العلا، الممتد من حوض الحجر شمالاً إلى حوض قرية مغيرة (مغيراء) جنوباً. وبنيت منازل البلدة القديمة في الجزء الغربي من الوادي، تحت جبل شاهق عالي الارتفاع، وحول هضبة صخرية مستطيلة الشكل، تمتد من الشرق إلى الغرب، تعرف بأم ناصر، ويفصل بينها وبين هذا الجبل ساحة مستطيلة تسمى الدور (المناخة)، وهي تمثل السوق العام للبلدة؛ وتحف البلدة من الجهة الشرقية والشمالية أشجار النخيل التي تروى من عين تدعل الواقعة شمالي البلدة (اللوحة ٣).

أما تضاريس منطقة العلا، بشكل عام جبلية، وهي امتداد لجبال الحجاز في الجنوب (اللوحة ١). ويتكون

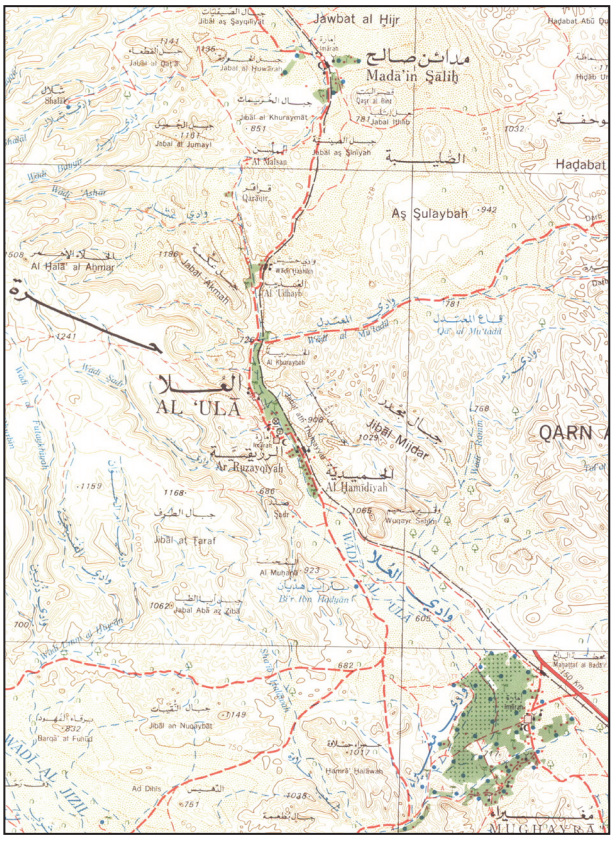

اللوحة ٢: خارطة توضح مواقع التراث.

إقليم الحجاز من الناحية الجيولوجية من الصخور البلورية والصخور المتحولة والتكوينات الرسوبية، وكذلك التكوينات الحديثة المتحدة مع تكوينات البحر الأحمر، إضافة إلى تكوينات جيولوجية حديثة. إلى جانب ذلك هناك الكثير من الحرات، أشهرها حرة العويرض، التي تقع غرب العلا (اللوحة ٢)، التي تبلغ مساحتها ٥٠٠٠ كيلومتراً مربعاً، وهي تمتد بطول ١٤٠ كيلومتر وعرض ٤٠ كيلومتر تقريباً (الفقير ١٤٢٧هـ: ٣٠).

مناخ العلا جاف يميل إلى الحرارة صيفاً وإلى البرودة شتاءً، ويبلغ معدل الأمطار (٢٥٤) مليمتراً سنوياً، ويبلغ ارتفاع العلا عن سطح البحر من (٧٦٥) إلى (٨٢٥) متراً (العنزي ١٤١٦هـ: ٢٤١).

تشير المصادر الآثارية والنصوص المكتوبة وما ورد في المصادر الكلاسيكية (سفر التكوين، ١٠: ٧، ٢٥: ٣) إلى أهمية موقعها الجغرافي، إذ كانت تمثل أحد المراكز

اللوحة ٣: يُشار إلى مكان عين تدعل.

اللوحة ٤: البلدة القديمة صورة من على هضبة أم ناصر.

اللوحة ٥: منظر آخر للنموذج الفريد للمدينة الإسلامية القديمة. صورة من على هضبة أم ناصر.

اللوحة ٦: البلدة القديمة صورة من على هضبة أم ناصر تظهر الطريق المعبد الذي شق البلدة القديمة وطمس كثير من معالمها، بالإضافة إلى بوابات البلدة الشرقية.

الحضارية والتجارية في العالم القديم في شمال غربي الجزيرة العربية، وهي تقع على أهم الطرق التجارية الرئيسة التي تربط جنوبي الجزيرة العربية مع مصر وبلاد الشام والعراق.

وتعدّ محافظة العلا من أهم مناطق الجذب السياحي في المملكة العربية السعودية، بما تحويه من تاريخ حضاري وثقافي موغل في القدم، ولا تزال آثارها شاهدة على تلك الحقب التاريخية التي تعاقبت على المنطقة. فقد استوطنتها ممالك عربية قديمة، كدادان ولحيان والأنباط. وفي العصر الإسلامي كانت منطقة العلا من بين أهم محطات الحجاج القادمين من الشام، ثم أصبحت محطة من محطات سكة حديد الحجاز التي أنشئت عام ١٣٢٦هـ (الإدارة العامة للآثار والمتاحف «د. ت»: ٤٥).

ومن حيث موارد التراث الثقافي والطبيعي، تتميز محافظة العلا الحالية بمواقع تراثية وتاريخية وعمرانية وطبيعية عديدة ومتنوعة. قامت وكالة الآثار والمتاحف (حالياً الهيئة العليا للسياحة والآثار) بتوثيق وتسجيل (٥٤) موقعاً أشهرها:

- الحجر (مدائن صالح)، وتقع على بعد ٢٢ كيلومتر تقريباً إلى الشمال من العلا.
- العلا القديمة (البلدة القديمة)، وتقع في الجزء الشمالي من مدينة العلا الحالية.
- دادان (الخريبة)، وتقع إلى الشمال الشرقي من العلا القديمة على بعد ثلاثة كيلومترات.
- قرح (المابيات) وتقع على بعد نحو ثمانية عشر كيلومتراً إلى الجنوب من العلا القديمة.
- محطة سكة حديد الحجاز (العلا) في العلا.

الأهمية التاريخية للبلدة القديمة بالعلا

كانت العلا تسمى قديماً «دادان»، وقد ورد هذا الاسم في التوراة وفي كتابات الآشوريين، وفي العديد من الكتابات العربية القديمة (الأنصاري وأبو الحسن ١٤٢٣هـ: ١٤). وسكنت القبائل النازحة من جنوب الجزيرة العربية دادان (العلا)، وكونت ما يطلق عليه في المصادر التاريخية (دويلات المدن).

اللوحة ٧: البلدة القديمة صورة من على هضبة أم ناصر تظهر سوق المناخة.

تعدّ مملكة دادان أقدم مملكة عربية نشأت في المنطقة، وكانت تحتل موقعاً استراتيجياً على الطريق الرئيسي لتجارة البخور والتوابل، وهي من أهم السلع التجارية الرائجة في العالم القديم (علي ١٩٧٨: ٢/ ٢٤٢-٤٣). ثم ظهرت مملكة لحيان، التي يُعتقد أنها مرحلة من مراحل مملكة دادان، ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد (الأنصاري وأبو الحسن ١٤٢٣هـ: ١٥). وكان يطلق عليها في المصادر الرومانية القديمة (Laeanites) (موسيل ١٩٨٨: ١٠٧). وقد تكون مملكة لحيان هي نفسها مملكة دادان، فكانت النسبة الأولى للمدينة والثانية للقبيلة (لحيان) (الأنصاري وأبو الحسن ١٤٢٣هـ: ١٥).

لم تصمد مملكة لحيان طويلاً أمام هجمات الأنباط، الذين أسسوا لهم مملكة عربية سميت مملكة الأنباط، واتخذوا من سلع (البتراء) عاصمة لهم، وقد استطاعوا أن يستولوا على الحجر سنة (٦٥ قبل الميلاد)، وجعلوها عاصمة ثانية لهم في الجنوب، وعلى دادان (العلا) سنة (٩ قبل الميلاد) (علي ١٩٧٨: ٢/ ٢٤٨). وحل الأنباط محل اللحيانيين وسيطروا على طرق التجارة القديمة، بدلاً عن اللحيانيين، التي تربط بين الهند وجنوب الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق. وانتهت مملكة الأنباط سنة (١٠٦ ميلادي) إثر سيطرت الرومان على الحجر، وتحول طريق التجارة إلى البحر، وبدأت الحجر (مدائن صالح) تفقد أهميتها كمحطة رئيسة على طريق التجارة، وانعكس ذلك على الحالة الاقتصادية وبدأ الناس في الرحيل عنها (الأنصاري وأبو الحسن ١٤٢٣هـ: ٦٨).

العلا في الإسلام

تذكر المصادر التاريخية أن وادي القرى فُتح في السنة السابعة من الهجرة بعد خيبر (ابن هشام ١٣٧٥هـ: ٣/ ٣٣٨). والعلا، في موقعها الحالي، لم تكن مشهورة في صدر الإسلام، أما المدينة التي كانت مشهورة ومعروفة بشكل جيد هي قُرح، التي تبعد عن العلا ثمانية عشر كيلو متر إلى الجنوب باتجاه المدينة المنورة. وكشفت الحفائر التي قامت بها وكالة الآثار، والتي تقوم بها جامعة الملك سعود في المابيات «قُرح» عن المدينة وسورها المتعرج وحوله

خندق وحصن منيع في أعلى الجبل، إضافة إلى العديد من المباني التي تمثل مجموعة منازل ودور المدينة، وأيضاً شوارعها وأزقتها، وكذلك مسجدها والقنوات المائية التي كانت بها (إبراهيم وآخرون ١٤٠٥هـ: ١١٣-١٢٣. إبراهيم وآخرون ١٤٠٦هـ: ٧١-٧٨. العمير ١٤٢٧هـ: ٢١٧-٢٥٢).

ومدينة العلا الحالية - كما يعتقد - أنها امتداد لمدينة دادان القريبة منها حيث إن كثيراً من العيون والقنوات المائية الموجودة حالياً تعود إلى فترات موغلة في القدم. ولقد ازدهر وادي القرى، بشكل عام، في القرون الإسلامية بسبب موقعه على طريق الحج الشامي (ابن رسته ١٩٨٢: ١٨٣، الاصطخري ١٩٢٧: ١٩-٢٠)، وكذلك المصري (الإدريسي ١٤٢٢: ١/ ٣٤٥)، وأيضاً مع ازدهار الحركة التجارية بين الأقطار الإسلامية.

أما البلدة القديمة فكانت قائمة عند ظهور الإسلام كبليدة صغيرة حتى أصبحت ذات شأن في أوائل القرن السابع الهجري، بعد أن حلت محل قرح كمدينة رئيسة في وادي القرى، الذي أصبح يعرف أيضاً باسمها «وادي العلا» (نصيف ١٤١٦: ٤٥). ويظهر، من خلال التجوال في أزقة العلا، أن المباني فيها قد شيدت على أنقاض المباني القديمة؛ فقد وجد في مباني البلدة القديمة كثير من الأحجار التي جلبت من دادان. تشير العديد من الدراسات والكتب إلى الأهمية التاريخية والأثرية والإجتماعية لبلدة العلا القديمة، وقد زارها العديد من الرحالة المسلمين والأجانب. كما شهدت زيارة العديد من الرحالة المسلمين أثناء رحلاتهم إلى الأراضي المقدسة، أو في طريق عودتهم منها؛ ومنهم ابن بطوطة سنة ٧٢٦ هجرية (ابن بطوطة ١٣٩٩هـ: ٢/٧٥٣)، وعبد القادر الجزيري الأنصاري سنة ٩٦١ هجرية (الجزيري ١٣٨٤هـ: ٤٥٧-٨)، ومحمد كبريت المدني في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وحاجي خليفة سنة ١٠٤٦ هجرية (نصيف ١٤١٦هـ: ٥٠-٥١)، وإبراهيم بن عبدالرحمن الخياري ١٠٨٠ هجرية (الخياري ١٩٦٩: ٤١)، وأوليا جلبي الذي مرّ بها في حجه سنة ١٠٨١/ ١٦٧٠م (جلبي ١٤٢٠: ٧١)، وعبدالغني النابلسي ١١٠٦ هجرية (نصيف ١٤١٦هـ: ٥٢)، ومن الغربيين تشارلز داوتي ١٨٧٦م (Doughty 1921)، ويوليوس أويتنج وشارلز هوبر ١٨٨٤م (أويتنج ١٤١٩هـ: ١٩٧)، وأعد ج كوك دراسة بعنوان «الكتابات السامية الشمالية» ١٩٠٣م (Cooke 1926)، وأنتوني جوسن ورالف سافينياك الفرنسسيين ١٩٠٧م (جوسن وسافينياك ٢٠٠٨م)، وكتب أ. موسيل ١٩٢٦م «شمال الحجاز» (موسيل ١٩٨٨)، وفردريك وينيت ووليم ريد ١٩٦٢ (Winnett & Reed 1970)، وبيتر بار وزملاؤه من جامعة لندن ١٩٦٨ (Parr, et. al. 1968)، وجون هيلي (Healey 1968: 108-116)، وكذلك هناك نصيف (نصيف ١٤١٦هـ)، والأنصاري (الأنصاري ١٤٢٣هـ)، وأبو الحسن (أبو الحسن ١٤٢٣هـ)، والذييب (الذييب ١٤٢٦هـ)، وعوض الزهراني (الزهراني ١٤٢٨هـ) وغيرهم زاروا العلا وكتبوا عنها وكل ذلك لأهميتها التاريخية والأثرية.

ويصف داوتي العلا بقوله: «ظهرت أزقة المدينة الضيقة نظيفة جداً، ولكنها مظلمة بسبب وجود غرف مبنية فوق الأزقة (الطيارة)، بسبب ضيق المساحة، وعند كل بيت توجد دكة بنيت من الطين على الطراز العربي، يجلس عليها أصحاب البيوت والمارة يتبادلون الأحاديث الودية. ويلاحظ عدم انتشار الأوساخ في شوارع البلدة، ولا يسمح للكلاب بدخولها، وقد بنيت بطريقة جيدة، وأحسن بكثير من أي قرية سورية تقريباً ... وهنا لا يوجد سوق تجاري مفتوح ،فالأشياء الصغيرة من الاحتياجات اليومية تباع بعد شروق الشمس عند منعطفات الأزقة، كما يبيع الجزارون وقت العصر لحم الضأن والماعز في الفضاء خارج الأسوار، أما الفواكه فكل مزارع يبيع ما ينتجه بستانه في منزله. وفي الشارع جلست على دكة مع الجالسين فكان حديثهم معي ودياً ولم يتعرض لي أحد منهم بسوء، ثم جاء ابن ظاهر ودعاني لتناول طعام الفطور، وبعد ذلك أخذني ظاهر إلى قهوته. وكل شيخ له مثل هذا المجلس تقدم فيه القهوة في أوقات معينة، ويقع في الدور الأرضي للبيت» (Douhty 1921: 142-143).

أما أنتوني جوسن ورالف سافينياك الفرنسسيين، اللذان زارا المنطقة في بداية القرن العشرين، فقد وصفا شوارع البلدة القديمة أنها كانت ضيقة ومتعرجة، وأنها تنقسم إلى

اللوحة ٨: القلعة التي تنسب إل موسى بن نصير فوق هضبة أم ناصر.

قسمين متماثلين، هما: حارة الشقيق وحارة الحف. كما ذكرا في موضع آخر وسائل الري الزراعي التي كانت تمارس، وأشارا إلى أن أهالي العلا كانوا يسقون بساتينهم بواسطة شبكة من القنوات المائية الممتدة بين أشجار النخيل، وأن بعضهم كان يستخدم جذوع النخل الخاوية كقنوات للري وإيصال الماء إلى البساتين (جوسن؛ وسافينياك ٢٠٠٨م). كما جاء وصف أويتنج لها بأن الأطراف العليا لأسوار البلدة مزين بالزخارف (أويتنج ١٤١٩هـ: ٢١٧).

كما وصفها أوغلى في عام (١٠٨١م) مشيراً إلى أن عدد وحداتها السكنية يقارب سبعمائة وحدة سليمة، وأن سقوفها مغطاة بالطين، والمياه متوافرة في كل وحدة سكنية (جلبي ١٤٢٠هـ: ٩٩).

لقد شهد القرن الخامس عشر الهجري خروج أهل العلا من بلدتهم القديمة وتشييدهم لمنازل على الطراز المعماري الحديث، خارج البلدة القديمة، وأضحت هذه المدينة مهجورة، وتداعى كثير من منازلها.

٤- تخطيط البلدة القديمة

الكتلة العمرانية

تتميز العمارة المحلية بالبلدة القديمة بالعلا بأنها ذات نسيج عمراني متميز ومتفرد، فقد كانت انعكاساً لتفاعل المؤثرات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والبيئة، التي شكلت جميعها نمط عماراتها وتخطيطها وبنائها.

تتكون الكتلة العمرانية في البلدة القديمة من أنماط عمرانية عديدة ومتداخلة، تمثل عمارة المنازل (العمارة السكنية) الجانب الأكبر والأشمل فيها، هذا إضافة إلى العمارة الدينية (المساجد)، وكذلك العمارة الدفاعية (قلعة أم ناصر)، التي تتميز جميعها بترابط مبانيها التي تكاد تكون كبيت واحد أو قلعة عظيمة من الطين.

ومن حيث التخطيط العمراني، تمثل بلدة العلا القديمة (حي الديرة) نموذجاً فريداً للمدينة الإسلامية القديمة (اللوحات ٤-٧) (كمدينة تونس القديمة وطليطلة في المغرب)، وقد أقيمت حول قلعة على رأس هضبة صغيرة يقال لها أم ناصر (شويكان ١٤٢٤هـ: ٣٤). وتعرف القلعة باسم قلعة العلا (نصيف ١٤١٦: ٤٦)، وقيل إنها تنسب لموسى بن نصير (الأنصاري وأبو الحسن ١٤٢٣هـ: ٢٤). وقد أعاد

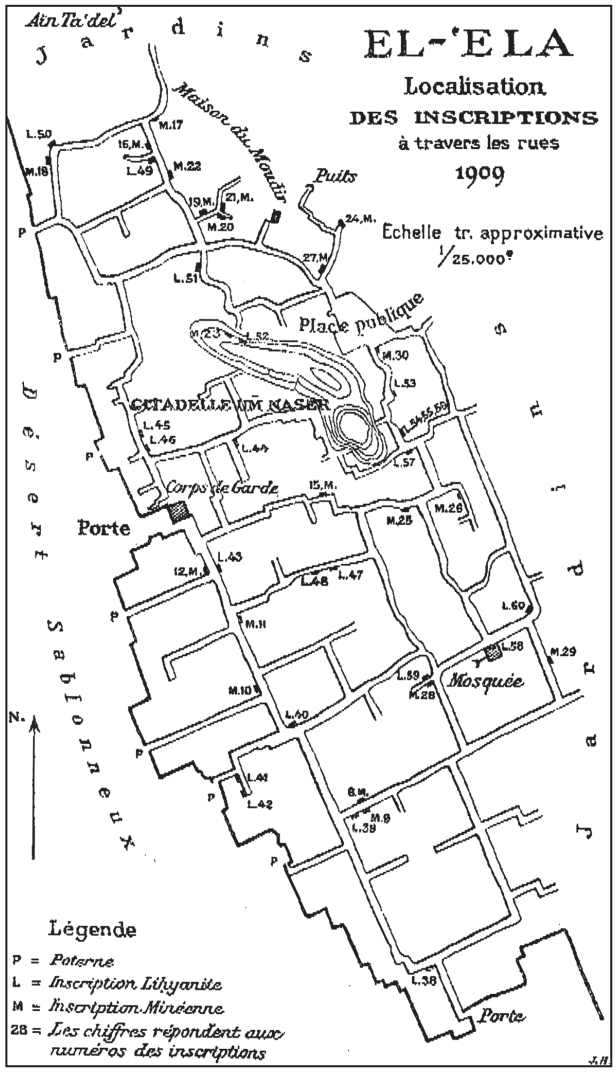

اللوحة ٩: تخطيط البلدة القديمة عام ١٩٠٩م (جوسن وسافينياك ٢٠٠٨م).

بناءها معز الدين الفاطمي، سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وجددها السلطان العثماني سليمان القانوني (جلبي ١٤٢٠هـ: ٩٩-١٠٠، ١٤٤) (اللوحة ٨).

بنيت المدينة من الحجر والطين، ويبنى الدور الأرضي غالباً بمادة الحجر، ويلاحظ أخذ سكان البلدة القديمة الكثير من الأحجار من آثار موقع (دادان) لغرض البناء بوضعها في صلب بنائهم، أو لتزيين بعض واجهات الأبواب والنوافذ (الشيباني: ١٤٢٤هـ).

تتألف البلدة القديمة (الديرة)، وفق ما كانت عليه عام ١٣٩٥هـ، من (٨٧٠) وحدة سكنية (الحجيري ١٤٢٢هـ: ٨)، (في عام ١٠٨١ هـ، كان عدد الوحدات السكنية نحو سبعمائة منزل سليم) (جلبي ١٤٢٠هـ: ٩٩). وقد لعبت الظروف الأمنية وصغر مساحة البلدة الدور الأكبر في تخطيطها (الحجيري ١٤٢٢: ٨). وصممت البلدة القديمة في العلا (حي الديرة) بطريقة يسهل الدفاع عنها، وظهرت كأنها مبنىً واحداً يضم عدداً من الوحدات المعمارية المتلاصقة،

اللوحة ١٠: تظهر هذه اللوحة الأزقة الضيقة المسقوفة، والغرفة (الطيارة).

اللوحة ١١: صورة لبعض الأزقة تتدرج في ميلانها الطبيعي نحو الشرق لتفضي بمياه الأمطار إلى المزارع.

تتخللها أزقة ضيقة ومرصوفة، في غالبها، ولا يزيد اتساعها عن مترين، إلاّ في بعض المواقع، التي تستخدم كمكان لبيع المنتجات المحلية، وقد سقفت بعض أجزاء الأزقة، وبعض هذه الأزقة غير نافذ (اللوحة ٩)، وأقيمت غرف فوق بعض الأزقة، لمهام أمنية ونوع من التوسعة، تسمى «الطيارة» لمراقبة المارة (اللوحة ١٠).

الأزقة والممرات

كما ذُكر سابقاً، فقد وصف كل من جوسن وسافينياك أزقة البلدة القديمة بأنها كانت ضيقة ومتعرجة (جوسن وسافينياك ٢٠٠٨). ويلاحظ أن غالبية الأزقة قد رُصفت بالحجر، وهي طويلة وضيقة وعرضها يتراوح ما بين مترين إلى ثلاثة أمتار (الشيباني ١٤٢٤هـ). وهذه الأزقة تتدرج في الميلان الطبيعي نحو الشرق، وكلها تفضي إلى المزارع، ففي حالة نزول الأمطار ودخولها من سوق المناخة إلى الأزقة، فإن هذه الأزقة الداخلية تقوم بتصريفها إلى المزارع في الشرق (اللوحة ١١)، مما يؤكد استراتيجية التخطيط

السليم في اختيار المكان (العالي)، والإلمام والمعرفة الإيجابية بمظاهر البيئة الطبيعية عند أهالي البلدة القديمة – عند التخطيط – المتمثلة في استغلالهم الأمثل لمياه الأمطار عن طريق تصريفها من خلال الأزقة المرصوفة بالحجر لري مزارعهم. كما وصف شارلز داوتي أزقة البلدة القديمة في العلا عام (١٨٧٦م) بأنها ضيقة ونظيفة جداً ومظلمة بسبب وجود غرف «الطيارة» المبنية فوق الأزقة (Douhty 1921: 142).

المساجد

توجد في البلدة القديمة خمسة مساجد، أحدها جامع، وهي: جامع ما يسمى بالعظام (ويقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من البلدة القديمة)، ومسجد الزاوي (أو المغاربة)، ومسجد الرويعية (الشمالي)، ومسجد الصخرة، ومسجد الزاوية (الظهرة) (رواية شفهية من عودة البريكيت: ١٤٢٨هـ).

البوابات والسور

نظراً لتلاصق الوحدات السكنية وتداخلها فيما بينها، فقد شكلت سوراً يحيط بالبلدة من جميع الجهات، بحيث لا يمكن دخول البلدة إلا من خلال بواباتها المعروفة (ويطلق على البوابة سور)، ويبلغ عددها أربع عشرة بوابة، تفتح عند الصباح وتغلق عند الغروب (وقد شاهدها الباحث مع الدليل عودة البريكيت) (اللوحة ١٢).

اللوحة ١٢: صورة توضح بعض البوبات الغربية.

اللوحة ١٣: لوحة توضح الطنطورة (الساعة الشمسية)، وفي ظلالها يحدد موعد أصحاب الماء من العيون.

وهي، مرتّبة من الشمال إلى الجنوب كالآتي: بوابة أبو حويان (من أكبر البوابات)، وأبو ذياب، وابن عامر (وتسمى بوابة العسكر، وهي أيضاً من أكبر البوابات)، وأم سالم بن عبدالكريم، والشواكين، وابن عيد، وآل حميد، وحسناء (وهي من أكبر البوابات وتفتح نحو الجنوب، وتقع في الجزء الجنوبي للبلدة)، والخصيصة، والدرب (يجتمع فيها الناس لتوزيع حصص الماء (نصيف ١٤١٦هـ: ٤٧)، والحسيني (وتقع في الشمال قريبة من عين تدعل)، والشريعة، والظهيرة، والجنينة. ولا تزال بوابات الجزء الغربي باقية إلى اليوم، أما التي في الجزء الشرقي فقد تهدمت وزالت معالمها، وللأسف فقد أنشئ الشارع العام للعلا الحديثة على بعض هذه البوابات.

ويجتمع السكان كل يوم بعد صلاة العصر، في الجهة الجنوبية من البلدة في الساحة الصغيرة عند بوابة الدرب لتقسيم مياه الرّي وتوزيعها. كما توجد الطنطورة (الساعة الشمسية)، التي يتم تحديد موعد حصص أصحاب الماء من العيون بناءً على ظلها، كما يتعرف أيضاً من ظلها على مواعيد دخول مواسم الزراعة (اللوحة ١٣).

الدكات

وتسمى الرحبة، وهي عبارة عن بناء من الحجر أو الطين أو اللبن والطين المجصصة، وغالباً ما تكون من الحجر، وتبنى عادة عند تلاقي عدة أزقة مع بعضها، وفي منتصف سكن العشيرة أو القبيلة، ولا يرتفع أكثر من متر في الغالب.

اللوحة ١٤: صورة لدرج مبنى بالحجر في أحد منازل البلدة القديمة في العلا.

الهدف الأساسي لهذه الدكة هو مساندة جدار المنزل من الخارج. فأساسات جدران المنازل من الخارج تتعرض للتآكل والتساقط من جراء مجاري السيول، حين تمر من أزقة البلدة باتجاه المزارع، فهذه الدكة أو الرحبة تساعد في تقوية وحماية أساسات الجدران. كما تستخدم هذه الدكة لجلوس كبار السن يتجاذبون فيها أطراف الحديث (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١، والإمام «د. ت»: ٢٩، وشويكان ١٤٢٤هـ: ٣٦).

٥- عمارة المنزل

تخطيط المنزل

تتصف منازل البلدة القديمة في العلا بالبساطة في المظهر، والأمان والخصوصية لسكانها. مع الوضع في الاعتبار تلاصق الجدران لتقليل التكاليف وتقاسمها مناصفة مع الجيران من ثلاثة جوانب في أغلب الأحيان.

ويتكون المنزل في البلدة القديمة، غالباً، من دورين، دور أرضي ودور علوي. تبلغ مساحة الدور الأرضي في المتوسط (٦ × ٨م) (المحفوظ ١٤٢٢هـ: ٤٠). ويستمد الدور الأرضي الإضاءة والتهوية من فتحة الدرج وفتحات أخرى أحياناً تكون في الأسقف تسمى محلياً (الجلو) (الحربي ١٤٢٧هـ: ٩٣٩-٩٥١). يوجد المدخل الرئيس في الدور الأرضي، وعلى المدخل باب مصنوع من جذوع الأثل أو النخل، يؤدي إلى باحة المنزل حيث تستخدم لخدمات المنزل، وجزءاً منها للدواب، وفي ركن منها يوجد رحى لطحن الحبوب. وفي الدور الأرضي أيضاً حجرتان تسمى كل منها بالقاعة،

اللوحة ١٥: صورة لبعض الجدران المجصصة ومرسوماً عليها منارات المساجد باللون الأحمر.

إحداها للجلوس والنوم شتاءً والأخرى تستخدم مستودعاً للتمور والسمن والحبوب وغيرها. وفي باحة المنزل درج، مبني من الحجر والطين وجذوع النخل أو الأثل يؤدي إلى الدور الأول، يستخدم أسفله (بيت الدرج) مستودعاً لتخزين الحطب والفحم للوقود والتدفئة في فصل الشتاء البارد، ويطلق عليه البعض (بيت الفحم)، كما قد يستخدم لتخزين أعلاف الحيوانات وبعض الأثاث الزائد عن الحاجة، أيضاً يستفاد من الدرج في تعليق بعض الأغراض مثل قربة الماء (اللوحة ١٤).

وفي بعض الوحدات السكنية الكبيرة، تتحول القاعة إلى ما يسمى مجلس المقهى. ويجتمع الناس في هذا المقهى للتباحث في أمورهم وقضاياهم الدنيوية.

يتكون الدور الأول من صحن مكشوف، يستخدم للجلوس، فيها المربد، وهو مكان غير مسقوف يستخدم أيام الشتاء للتدفئة (وتسمى مشراقة) نظراً لسقوط الشمس عليه، وفي أشهر الصيف تستخدم للنوم ليلاً، ويستخدم أيضاً لتجفيف الحبوب بعد حصادها وكذلك عندما يراد حشو التمر في القِرَب. وفي الدور الأول أيضاً المطبخ، والمرحاض. وربما استغل صاحب البيت الشارع الفاصل بينه وبين جاره فيمد جذوع النخل على طرف جدار جاره فوق الشارع ويقيم عليه غرفة تسمى طيارة (تستخدم للنوم في فصل الشتاء، وكذلك للنواحي الأمنية) (اللوحة ١٠). ويستخدم سطح هذه الوحدة السكنية كمكان (مستودع) لوضع أكياس الحبوب ، ويؤخذ منه بالقدر الذي يحتاج إليه

اللوحة ١٦: صورة لأحد الجدران المجصصة وعليه رف من الخشب ليوضع عليه أباريق الشاي ودلال القهوة.

اللوحة ١٧: صورة الوجار وتلاحظ الفتحات في الجدران للتهوية.

(الإمام «د. ت»: ٢٣-٢٦، شويكان ١٤٢٤هـ: ٣٥).

المقاهي

وهي وحدة سكنية تؤدي وظيفة الضيافة، وقد صممت لعقد الاجتماعات من أجل التشاور وتبادل الآراء في الموضوعات الأمنية والاجتماعية والاقتصادية والإدراية ... إلخ، مما يمس حياة الناس ومصالحهم، في فترة ما قبل العهد السعودي الآمن. تقع هذه الوحدة في الدور الأرضي من المنزل، وتفتح مباشرة على الزقاق العام. ووجود هذه المقاهي في الدور الأرضي وانفتاحه على الزقاق العام يسمح بدخول الضوء إلى داخل المقهى، وكذلك يسمح بتغيير الهواء الراكد. ويحتل المقهى أكبر مكان في المنزل حيث تصل أبعاده إلى حوالي (٩×٣,٥م) (المحفوظ ١٤٢٢هـ: ٤٠)، ويتراوح ارتفاع سقف المقهى ما بين مترين ونصف إلى ثلاثة أمتار، وتختلف هذه المساحة من منزل إلى آخر. وهذه المقاهي تبنى من الحجر الرملي المشذب، وإن كانت في الغالب من أحجار مدينة دادان الأثرية. وسقف المقهى يبنى من خشب النخل أو الأثل ويوضع فوقه جريد النخل أو ما يسمى «المزاريق» (جريد النخل المجرد من الخوص)، حيث ترص بشكل متلاصق وتربط بحبال من ليف النخل ثم يوضع فوقها الطين. ويسوى جدار المقهى من الداخل بالطين، ثم يرش بطبقة من الجير الأبيض، وقد تزين بعض المقاهي بالزخارف الجصية، والرسوم الملونة، خاصة اللون الأحمر (وهو متوافر محلياً من بعض الصخور الرملية) (اللوحة ١٥).

اللوحة ١٨: صورة تبين طريقة بناء الوحدات السكنية بجذوع النخل وفوقها الجريد ثم يغطى بالطين.

يزين صدر المقهى برف أو رفين أو أكثر مثبته بأوتاد في الحائط تعرض عليها أنواع وأحجام مختلفة من دلال القهوة وأباريق الشاي (اللوحة ١٦). ويمكن أن توضع أدوات تجهيز القهوة مثل فناجين القهوة وأكواب (بيالات) الشاي، المحماس، والملقاط، و(بيزات الدلال) وغيرها، وقد يعلق عليها أو يوضع عليها المراوح المصنوعة من سعف النخيل. وعلى أرضية المقهى في الصدر يبنى الوجار (وهو بناء معد لحرق الفحم عليه)، حيث توقد النار في فصل الشتاء للتدفئة (اللوحة ١٧). ويعلق على جدران المقهى بعض الأنواع من الأسلحة المختلفة كالبنادق والسيوف والخناجر كزينة. وتفرش هذه المقاهي بالخصف (يصنع من سعف النخل) أو المفارش. (المحفوظ، ١٤٢٢هـ:١٠٧-١١١).

٦- مواد البناء

استطاع المعماري العلاوي التقليدي استثمار الموارد الطبيعية الموجودة في بيئته بكفاءة عالية إما بشكلها الطبيعي أو تطويرها وفقاً لحاجياته. وتتكون أهم مواد البناء المستخدم في بناء الوحدات السكنية من مادة الحجر الرملي والجيري، والطين، والطوب اللبن، والجص، وجذوع النخل، وجذوع شجر الأثل، وجريد النخل، والليف، وتعدّ هذه المواد الأساسية التي استخدمت في بناء البلدة القديمة (اللوحة ١٨).

وهناك العديد من أساليب وأنواع البناء التي استخدمها المعماري العلاوي منها طريق البناء بلبن القالب والبناء باللبن المشكل يدوياً، إضافة إلى استخدامه العديد من أنواع الحجارة (المشذبة، المجلوبة من موقع دادان، والحجارة غير المشذبة، والأخرى المشذبة المجلوبة من المحاجر)، ما جعل الشكل العام لبناء الجدران يأخذ أشكالاً متعددة منها المنتظم وغير المنتظم، إعتماداً على شكل الحجارة المستخدمة في البناء.

الطين

يؤدي الطين دوراً كبيراً في عملية البناء في البلدة القديمة، والعمارة التقليدية في المملكة العربية السعودية بشكل عام. والطين تبنى به جميع الجدران الداخلية والخارجية، كما يستخدم كمادة لياسة ومادة لاحمة بين المداميك الحجرية في الأساسات وبين الطوب اللبن، وكذلك يستخدم في تغطية الأسقف فوق جريد النخل وفي أرضيات السطوح.

يتوافر الطين في المناطق المنخفضة التي تتجمع فيها مياه الأمطار وتبقى فيها لفترات طويلة، ويتكون الطين نتيجة عوامل التعرية للصخور وبقايا المواد العضوية. ويحمل الطين إلى المنطقة المراد البناء فيها على ظهور الحيونات.

يتميز بخواص فيزيائية عالية مثل خاصية العزل الحراري، والعزل الصوتي، بالإضافة إلى سهولة تشكيله، و... إلخ. الشكل أدناه يوضح تحليل لنموذج الطين المستخدم في البلدة القديمة في العلا (الجدول ١) (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١).

المادة	النسبة المئوية
سيلكا	٥٠٪
ألومينا	٣٤٪
أكسيد الحديد	٨٪
جير وماغنيسيوم	٦٪
مواد عضوية	٢٪
المجموع	١٠٠٪

الجدول (١) يوضح نسبة المركبات في مادة الطين (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١)

ومن الطين يتشكل الطوب اللبن المجفف تحت أشعة الشمس بعد إضافة دراسة سنابل القمح والشعير وسيقانهما (التبن)، ليزيد من قوة الطين وتماسكه ودعم قدرته الفذة على العزل. ويتم تجهيز الطين بتجميعه على هيئة كومة هرمية ذات قاعدة عريضة، يُعمل حفرة في أعلى الكومة ثم تملأ بالماء لتخميره، التي تستغرق ما بين ٧-١٥ يوماً وذلك بإضافة الماء إلى الطين وخلطه وتقليبه يومياً بواسطة الأرجل والمساحي ليكون أكثر قوة وصلابة. وبعد ذلك يكون جاهزاً للاستخدام.

يستخدم المُلَبّن في تشكيل طوب اللبن قالباً خشبياً بأبعاد متفق عليها، (يوجد في مباني العلا ثلاثة مقاسات من الطوب اللبن هي: (٥٠,٥ × ٣٢,٧سم)، و(٣٢,٥ × ٣٠,٥سم)

و(٢٥,٥ × ٢٣ سم) (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١)، مفتوح من الوجهين، ويصنع من خشب الأثل، إذ يوضع على الأرض ثم يملأ بالطين المخلوط جيداً، ثم يرفع القالب فتبقى كتلة الطين، ويرص الطوب اللبن في صفوف حتى يجف ويقلب على جانبه الآخر، وبعد جفافه ينقل إلى مكان البناء. يقوم المعلم ومساعدوه بعملية البناء ورص الطوب اللبن، ولكن في الغالب كما في البلدة القديمة كان التكافل الإجتماعي هو السائد، وهو ما يعرف بالفزعة، حيث يقوم الأهالي بالعمل مع صاحب الدار دون أجر يتقاضونه. ويتم استخدام الطوب اللبن في إقامة الجدران فوق أساسات البناء مع استخدام مونة الطين لتثبيته، ويرص الطوب اللبن فوق بعضه بطريقة تبادلية، ويصف طولياً إذا كان الحائط قليل السُمك كما في البساتين، أو عرضياً للجدران السميكة، التي قد تحمل جذوع النخل والأثل والطوابق العليا.

الحجر والأحجار

وهي تلك الكتل الصخرية القابلة للتكسير والتشذيب، التي تقطع من الجبال والتلال الصخرية. معظم الأحجار المشذبة، في البلدة القديمة في العلا، جلبت من دادان القريبة. ويعدّ الحجر الرملي من أكثر الأحجار استخداماً في البلدة القديمة في العلا، ثم يأتي بعده الحجر الجيري، ولم يُشاهد أي من الحجارة البركانية في منطقة الدراسة على الرغم من قرب حرة العويرض. ومهما تكن طبيعة هذه الأحجار فهناك أماكن معينة في الوحدات السكنية تستلزم أن يستخدم فيها مادة الحجر، مثل الأساسات والأعمدة وغيرها. ويستخدم الحجر في بناء أعمدة المساكن وبناء الأساسات وبناء الدرج، وتستخدم في طي الأبار والقنوات المائية المنتشرة في البلدة القديمة. ولم يكن هناك مقاس معين لهذه الأحجار. وينقسم الحجر كمادة بناء إلى نوعين:

- حجر الدبش غير المهذب، ويستخدم مع الطين في بناء الدرج، ويوضع في أساس جدران المنازل.
- حجر مشذب تسوى سطوحه بأدوات بسيطة، وهذا النوع من الحجر قد يجلب من دادان، التي تبعد نحو ثلاثة كيلومترات، أو يسوى محلياً.

التلييس (والتلويق)

بعد الإنتهاء من البناء أو أثناء البناء تليس الجدران بالطين المخلوط بالتبن وتسمى هذه الطريقة بالتلويق. وأيضاً يليس أهل العلا، في البلدة القديمة، منزل العريس قبل الزواج. وتليس الجدران أو ما يسمّونه في مصطلحاتهم (التلويق)؛ وذلك لحماية الجدران من العوامل الطبيعية المختلفة كالأمطار والرياح والشمس، ولسد الشقوق تجنباً للحشرات. ويمكن بعد تلييس الجدار يطلى بالنورة (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١، شويكان ١٤٢٤هـ: ١٣٦-١٣٧، والمحفوظ ١٤٢٢هـ: ١١٠)

الجص (النورة) والتجصيص

يعدّ الجص من مواد البناء المحسنات وليس من الضروريات. ويجلب ككتل صخرية جيرية بيضاء اللون من الجبال الصخرية ومقالع الأحجار في منطقة الصخيرات على عمق ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريباً تحت الأرض، تستخرج بالمساحي، ثم تجمع وتدق وتحمل على الحمير إلى البلدة القديمة، ثم تحرق، ثم تدق مرة أخرى وتوضع في براميل ثم يضاف إليها الماء لمدة يوم وليلة (النويصر ١٤١٩هـ: ١٥٢. العمير ١٤٢٨هـ: ٤٩-٥٢). وللجص قدرة هائلة على امتصاص الرطوبة والاحتفاظ بها في المناطق الحارة وتلطيف الأجواء داخل الغرف.

الأخشاب وما يتبعها

يكثر في العلا النخل وشجر الأثل، حيث تتميز بصلابتها ومقاومتها للتشقق، إضافة إلى خفة وزنها. تعدّ جذوع النخل أثقل وزناً من جذوع الأثل، وإمكاناتها العازلة للحرارة والصوت. وتستخدم هذه الجذوع، بشكل عام، في تسقيف المباني والسواكف وصناعة الأبواب وأقفالها والنوافذ (اللوحة ١٩). ويستفاد من جذوع النخل لتسقيف المنازل، وبناء الأسقف كجسور على الجدران. ويفضل استخدام خشب الأثل لصناعة الألواح الخشبية، لسهولة تشكيله، لعمل الأبواب والنوافذ والأرفف.

ويستخدم جريد النخل المجرد من الخوص، أو بالخوص،

اللوحة ١٩: يلاحظ الباب المصنوع من خشب الأثل والضبة.

في تسقيف المنازل، حيث يرص الجريد فوق الجذوع ويربط بحبال من الليف. أما سعف النخل فيصنع منه الحصير ويوضع فوق جريد النخل لتغطية السقف، ثم يوضع فوقه الطين.

٧- طرق بناء الوحدات السكنية في البلدة القديمة ومراحله

الأساسات

إن طريقة بناء عناصر الوحدات السكنية بالبلدة القديمة تمر بالعديد من المراحل التي تشكل - في النهاية - عمارة المنزل العلاوي، كما هو مماثل في معظم المباني التقليلدية، إذ يتم البناء بالرجوع إلى مشورة المعلم (معلم البناء)، ومن ثم تتكون الخطوة الأولى من تهيئة المساحة على الطبيعة، التي تعادل ما يسمى في عالم اليوم بالخريطة. فالمعلم يخطط أساس المبنى على أرض البناء مباشرة محدداً موقع الجدران الرأسية والدرج والحجرات وهكذا (رواية شفهية عن عودة البريكيت: ١٤٢٨هـ).

يبدأ العمل باختيار المكان المناسب، ثم تحضير الأدوات اللازمة للبناء، وبعد الإتفاق على شكل الوحدة السكنية، يتم التخطيط لها فينظف المكان وتبدأ أعمال حفر أساس الدار من عمق متر إلى مترين وعرض متر ونصف المتر تقريباً. وبعد تسوية أرضية الأساس توضع قطع من الكسر الحجرية كطبقة عازلة ثم يرش فوقها طبقة من الملح، ثم يرص فوق طبقة الملح أحجار كبيرة حتى سطح الأرض. من هنا يبدأ البناء الظاهر للعيان، فالحجارة المستخدمة الآن ستكون حجارة كبيرة مصقولة، وقد تجلب من منطقة دادان القريبة. وليس هناك إرتفاع ثابت، فقد يكون متراً، ويكمل الباقي بالطوب اللبن أو في بعض الأحيان بالطين، ولكن الغالب أن جميع الجدران التي تطل على الخارج مبنية من الحجر حتى أعلاها. ويستخدم الطين والطوب اللبن حسب حاجته، ويستخدم الطين في عملية البناء لربط الطوب اللبِن بعضه ببعض ولإعطائه خاصية التماسك، ليصبح كأنه لبنة واحدة، ولسد الفراغات خاصة بين الأحجار. كما يتم في كلتي الحالتين تلييس جدار الأساس، من الخارج بالطين والتبن معًا، من الأساس إلى أعلى الجدار.

ويقوم بعملية البناء ورص الطوب اللبِن رجل متخصص يطلق عليه اسم (المعلّم) يرافقه مساعدون يطلق عليهم (عمّال)، وهم من يساعد المعلّم بمناولته الماء والطين والطوب اللبِن حسب الحاجة.

الجدران

تبنى معظم الجدران العلوية والجدران الداخلية للمنازل من الطوب اللبن، وهناك مقاسات متنوعة للطوب اللبن، فهناك أربعة مقاسات (رواية شفيهة من عودة البريكيت ١٤٢٨هـ)، وهناك ثلاثة مقاسات للطوب اللبن (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١) تستخدم حسب عرض الجدار، وكثيراً ما تستخدم الأحجام الكبيرة في الدور الأرضي من المنازل، والجدران التي تحمل أخشاب سقف الغرفة، والتي تحمل الدورين الثاني والثالث. وتستخدم المقاسات الصغيرة في الأدوار العليا. ويلاحظ على الجدران الخارجية، كما هو موجود في العمارة التقليدية النجدية، التناقص التدريجي لسمك الجدار إذ يميل إلى الداخل. وسمك الجدار يتراوح من ٤٠ إلى ٦٠ سم (الإمام «د. ت»: ٢٦).

ويستخدم الطوب اللبن في بناء جدران منازل البساتين والمقابر والحمامات. وقد لوحظ أيضاً على أسوار البساتين أنها عريضة من القاعدة وتتناقص تدريجياً كلما ارتفع حائط السور.

الأعمدة

تشكل الأعمدة عنصراً رئيساً في منازل البلدة القديمة في العلا حيث تتكون عادة من أحجار مشذبة، تُرصّ بشكل

دائري أو مربع، وتحمل في نهايتها التاج الذي يكون أيضاً من الحجر، وتحمل الجسور الخشبية على التاج في اتجاهين أو أكثر، وعلى مستوى واحد أو أكثر.

الدرج

هناك نوعان من الدرج، منها ما يبنى بالحجر ومنها ما يبنى من الطين المطلي بالجص السميك. ففي الدور الأرضي يبنى الدرج التي في باحة المنزل من الحجارة المشذبة، فتبنى قاعدة الدرج من الحجارة ومونة الطين، ويبنى الدرج من جذوع الأثل أو النخل وفوقه الطين مخلوط بالأحجار الصغيرة ثم فوقها الأحجار المشذبة (اللوحة ١٤). أما الأدوار العلوية فيوصل إليها عن طريق درج يبنى بالطين، وذلك لخفة وزنه.

سقوف الغرف وأرضيات السطوح

يتكون سقف المنزل من جذوع النخل أو الأثل القوية، ثم يرص فوقها جريد النخل، وأحياناً بدون السعف، ويربط جذوع النخل وجريده بحبال من الليف، ليمنع سقوط الطين، وأحياناً يغطى بطبقة من الخصف، ثم يغطى بطبقة من الطين.

أما أرضيات السطوح فيراعى فيها الميل نحو جهة الشارع أو الزقاق، ويثبت المرزاب ليسمح بمرور ماء المطر أو غيره خارج المنزل.

الأبواب والنوافذ

تحتل الأبواب والنوافذ أهمية خاصة في منازل العلا، وكما ذكر سابقاً فإن الدور الأرضي غالباً لا توجد فيه نوافذ البتة ويكتفى بوجود الباب الخارجي وفتحة في سقف الغرفة السفلية يطلق عليها (الجلو) ويكون الهدف منها إدخال النور والتهوية. أما في الأدوار العليا من المنزل فتختلف مقاسات النوافذ حسب موقعها، فيُلاحظ في الدور الثاني مثلاً نوافذ طولية صغيرة يبلغ أطوالها (٣٥×٢٣سم). أما في الأدوار العليا فتكون أوسع من ذلك (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١). والنوافذ عبارة عن فتحات إمّا مربّعة الشكل أو مستطيلة أو مثلّثة. ومع بداية الحكم السعودي والأمن الذي عمّ البلاد ظهرت النوافذ في الأدوار الأرضية ويلاحظ ذلك في سوق المناخة.

أما الأبواب فهي من العناصر المهمة إذ يجب أن يتصف بالمتانة وأن يوفر الحماية للمنزل وسكانه، خاصة وأن الظروف الأمنية لعبت دور كبيراً في تخطيطها. يصنع الباب غالباً من خشب الأثل، لسهولة نحته وتشكيله كألواح، ويتكون من شرائح سميكة ترص مع بعضها عمودياً، وتربط من الطرفين والوسط بدعائم خشبية من الجهتين، وتثبت بمسامير حديدية قوية. وأحياناً تصنع الأبواب من جذوع النخل ولكنها قليلة لثقلها، وتستخدم فقط في الأبواب الخارجية أو في بوابات المزارع. ويرتكز الباب على ركيزة خشبية سفلية تدور في حجر محفور، ويثبت من الأعلى بمحور له ثقب في عتبة الباب الخشبية. وهناك نوعان من الأبواب: أبواب منازل العامة وهي صغيرة ويحتاج أن يحني الداخل منها رأسه حتى يدخل ومقاسها (٩٠×٦٠سم)، وأبواب المنازل الكبيرة وأصحاب المقاهي، وهي كبيرة مقارنة بأبواب العامة، ومقاس أبوابها (٩٠×١٧٠سم) تقريباً (المحفوظ ١٤٢٢هـ: ١٠٨). وتغلق وهذه الأبواب من الخارج بالضبة والمفتاح، وهي مزالج خشبية منحوتة من أخشاب الأثل، وتختلف من باب إلى آخر لضمان اختلاف المفاتيح. وتقفل من الداخل بأقفال من الخشب تسمّى (السقّاطة)، أصغر من الضبة، إذ تفتح برفع لسانها الساقط عن طريق فتحة تسمّى (الدقر)، وهي فتحة ملتوية تسمح لمرور اليد إلى الداخل لرفع السقاطة. ولا تخلو الأبواب من نقوش مماثلة كما نجده على الجدران الداخلية لبعض المنازل وبالألوان نفسها (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١، والإمام «د. ت»: ٢٣، وشويكان ١٤٢٤هـ: ٣٤-٣٥ و٦١-٦٢، والمحفوظ ١٤٢٢هـ: ١٠٨-١٠٩).

تلوين الجدران

كثير من المنازل التي شاهدها الباحث كانت ملونة بأصباغ مختلفة، وتعمل منها الرسومات والأشكال الهندسية المتنوعة. وهذه تتم بعد تليس الجدران بطبقة من الطين الناعم، ثم تدهن باللون الأبيض (الجص)، ثم يرسم عليها بألوان مختلفة أشهرها الأخضر والأحمر والأزرق، كما

يرش الجص حول الأبواب والنوافذ. (اللوحة ١٥) (الحربي ١٤٢٧: ٩٣٩-٩٥١، شويكان ١٤٢٤هـ: ١٣٧).

٨- مخاطر ومهددات التراث العمراني بالبلدة القديمة في العلا

على الرغم من التخطيط العمراني المتفرد للبلدة القديمة وأهميتها التاريخية والتراثية والثقافية إلاّ أنها تعرضت وما تزال تتعرض للتدهور والتدمير جراء العديد من العوامل الطبيعية والبشرية التي تكاملت وعملت على سقوط العديد من عناصر عمارتها التراثية ومكوناتها. فالقلعة متهدمة في أغلب أجزائها، والكثير من المنازل تعرضت للدمار شبه الكامل، ولكن على الرغم من ذلك فالأجزاء الغربية من البلدة لا تزال متماسكة من حيث البناء، وكذلك بعض الأجزاء الشرقية والكثير من وسط المدينة، كما شاهد الباحث ولاحظه. فنتيجة لهذا الدمار الذي لحق بالعديد من مبانيها يصبح من الصعوبة بمكان دخول أزقة البلدة الضيقة بسبب تهدم بعض الجدران، إضافة إلى خطورة الإنهيارات المفاجئة التي يمكن أن تحدث من حين إلى آخر.

من الجانب الآخر يرى الباحث من خلال زيارته الأخيرة للبلدة القديمة (ذو الحجة ١٤٢٨هـ)، أنه يُسجل إيجابياً للهيئة العليا للسياحة جهودها البارزة في العمل على ترميم العديد من عناصر المكونات المعمارية للبلدة القديمة، خاصة القلعة وبعض منازل البلدة لغرض الحماية والحفاظ على طرازها المعماري المميز، وتأهيلها للجذب السياحي توظيفاً واستثماراً في موارد التراث العمراني.

ومع كل ما نوليه لتراثنا العمراني وعماراتنا التقليدية من اعتزاز إلاّ إننا غفلنا عنها في فترة يمكن أن نحددها ببداية الطفرة الاقتصادية المتمثلة في الانتعاش التنموي والحضاري، الذي انعكس أثره على جميع مجالات حياتنا ومنها المجال العمراني، الأمر الذي أتاح بناء المساكن الحديثة إلاّ أنه أفضى أيضاً إلى هجر المباني التقليدية والانتقال إلى المخططات والمباني الحديثة (وزارة الشؤون القروية والبلدية ١٤١٩هـ: ٣، السواط ١٤٢٤هـ). ومع مرور الزمن وإهمال بعض المباني التاريخية القديمة وهجرها وعدم استغلالها وتوظيفها كما هو ماثل في البلدة القديمة في العلا، أصبحت تلك المباني مهددة بالخراب والإنهيار مع الرغم من أهميتها التاريخية والتراثية واحتوائها على كثير من الخصائص والسمات المميزة بطابع العمارة التقليدية.

تتمثل المخاطر التي تهدد زوال معالم التراث العمراني في البلدة القديمة في عاملين رئسيين هما: العامل البشري والطبيعي.

العامل البشري

يعدّ الإنسان المسؤول الأول عن تدمير المدن التاريخية والمباني التقليدية وخرابها، فالعوامل البشرية بصورة عامة تتمثل في الآتي:

١- هجر السكان للبلدة في القرن الخامس عشر الهجري، جراء التنمية والنهضة التي شهدتها المملكة، وخروجهم من بلدتهم القديمة وتشييدهم المنازل على الطراز المعماري الحديث، وأضحت البلدة مهجورة وتداعى الكثير من منازلها.

٢- غياب الخطط والبرامج الخاصة بإعادة تأهيل التراث العمراني بالبلدة وإحيائه، ما عدا الجهود الأخيرة التي قامت بها الهيئة العليا للسياحة والآثار.

٣- قلة الوعي بأهمية التراث العمراني، حيث يتم التعدي بالهدم والإزالة. كما هو ماثل في تشييد الشارع العام للعلا الحديثة الذي أدى إلى هدم وإزالة بعض مباني وبوبات البلدة. حيث تتجاهل بعض أساليب التخطيط العمراني وأنظمة البناء قيم التراث العمراني.

٤- قصور التشريعات الوطنية العاملة على الحفاظ على التراث العمراني وحمايته.

٥- نقص الكوادر الفنية المؤهلة والمدربة في مجال الترميم والصيانة، التي تعمل على حماية وحفظ التراث العمراني.

٦- القصور الإعلامي تجاه التوعية والتشجيع على الحفاظ

على التراث العمراني لما له من أهمية تاريخية وثقافية وجمالية وفنية وعلمية.

العوامل الطبيعية

تتمثل في الرياح والتعرية وخاصة الأمطار، إذ تعدّ الأمطار الأكثر ضرراً وتدميراً للمواقع التراثية المبنية من الطوب اللبن، وخاصة قاعدة الجدران (البيني ١٤١٩هـ: ٤٣). فتسرب مياه الأمطار وتجمعها يؤدي إلى تدمير المباني التراثية، فعلى الرغم من أن أساسات المباني في البلدة القديمة قد شيّدت من الحجر، في الغالب الأعم، إلاّ إنه يلاحظ تعرض بعضها إلى الدمار بسبب جريان المياه وتسربه.

ومن عوامل الدمار الطبيعي في البلدة القديمة العمل التخريبي للحشرات النمل الأبيض (الأرضة) التي تعمل على نخر الإنشاءات الخشبية وما يتبع ذلك من إضعاف وبالتالي إنهيار هيكل الأبنية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٠: ٣٢٨). وقد تجسد دور الحشرات في تلف بعض عناصر البناء ومكوناته في البلدة القديمة بصورة واضحة في انهيارات السقوف والأبواب والنوافذ، كما لاحظ الباحث ذلك بنفسه.

لكل هذه الأسباب والعوامل، التي عملت على تدمير التراث العمراني وتخريبه بالبلدة القديمة في العلا، كان لا بد من وضع سياسة متكاملة لحمايتها وإيجاد الوسائل والسبل والآليات التي تعمل على الحفاظ عليها.

٩- سياسة الحفاظ المتكاملة للتراث العمراني بالبلدة القديمة في العلا

عندما تدرك أهمية البلدة القديمة وتاريخها، وتخطيطها وطريقة عمارة المنزل وتخطيطه، ومواد البناء في البلدة القديمة، وطرق ومراحل بناء الوحدات السكنية، وعوامل التلف والمخاطر التي تهدد التراث العمراني في البلدة القديمة يصبح بالإمكان وضع السياسة الداعمة للحفاظ على هذا التراث العمراني، وإيجاد الوسائل والآليات التي تعمل على بقائه. ومع ذلك فإن ترميم الأجزاء التالفة وصيانتها وإعادة المنشآت الساقطة غير كاف، إذ من الضرورة بمكان تبني سياسة متكاملة للحفاظ على التراث العمراني والبلدة القديمة، لها وسائلها وآلياتها الفاعلة لضمان الحماية، ولتفادي تكرار الهجر والتداعي والاهمال في المستقبل.

تشمل سياسة الحفاظ المتكاملة (Integrated Conservation Policy) المقترحة في هذا البحث، وسائلَ وطرقاً، تعمل على حماية التراث العمراني بالبلدة القديمة والحفاظ عليه. وهذه السياسة تتمثل في الآتي:

١- الجهود الرسمية للدولة ممثلة في الهيئة العليا للسياحة والآثار، فالهيئة، بحكم مسؤوليتها، تساعد وتعمل على تنفيذ البرامج والخطط، التي تعمل على ترميم معالم التراث العمراني وصيانتها والمحافظة عليه، وفق القوانين والنظم والأعراف الدولية والمحلية.

٢- جهود المجتمع المحلي ويتمثل في اشراكه في عملية حماية التراث العمراني والمحافظة عليه، وذلك عبر التوعية بأهميته التاريخية والثقافية بوصفه جزءاً لا يتجزء من هويته الحضارية. فالهدف الوطني المشترك يتجسد في حماية هذا التراث والمحافظة عليه وصيانته.

٣- وضع خطة عملية لإدارة التراث العمراني بالبلدة القديمة في العلا تعمل على رسم السياسات ووضع البرامج والخطط الداعمة للمحافظة عليه وحمايته وصيانته.

٤- الاستدامة العمرانية للنسيج والطابع العمراني بالبلدة القديمة. وذلك من خلال تجديد وإعادة الإنشاء والإحياء، ومن ثم إعادة التوظيف والاستخدام لموارده وقيمه المختلفة، من شأنها أن تعمل على حمايته والمحافظة على هويته الثقافية والعمرانية.

آليات ووسائل تحقيق سياسة الحفاظ المتكاملة للبلدة القديمة

إن سياسة الحماية المتكاملة تحتاج إلى آليات ووسائل

لتنفيذ خططها وسياساتها وبرامجها الداعمة للحفاظ على التراث العمراني بالبلدة القديمة، وهذه الوسائل تتمثل في الآتي:

١- التوثيق والتسجيل، يجب أن تتم عملية التوثيق والتسجيل لكافة المعلومات والبيانات الخاصة بالحالة الراهنة لمبان ومعالم البلدة القديمة للرجوع إليها عند إجراء عملية الحفاظ أو إعادة الاستخدام.

٢- الصيانة والترميم. أعمال الصيانة والترميم التي تعمل على إبقاء كل ما هو أصيل في النسيج العمراني للبلدة، وأن تكون الصيانة بحدودها القصوى – على الرغم من تكلفتها المادية الباهضة – حتى تعود المباني إلى حالتها السابقة فتكون مؤهلة لاستخدمات جديدة.

٣- إعادة التأهيل للاستخدام والاستدامة. عادة ما تكون آلية إعادة التأهيل لاستخدامات جديدة عبر ثلاثة مراحل، قد تكون متداخلة مع بعضها وقد تسبق إحداها الأخرى إلاّ أنها تكمل بعضها بعضاً، وهي:

- الصيانة والترميم.
- اختيار الوظيفة المناسبة للمبنى التراثي.
- التحويرات الفضائية لمواءمة الوظيفة المختارة (المالكي ٢٠٠٤: ٦٦-٧٠).

فلإعادة التأهيل للبلدة القديمة وتوظيفه لاستخدامات جديدة يُقترح في البحث أن تكون البلدة كلها، بعد تأهيلها، متحفاً مفتوحاً. وهذا يتطلب القيام بأعمال الصيانة والترميم والتحويرات الفضائية إذا دعت الحاجة لذلك، من أجل مواءمة الوظيفة الجديدة المختارة للبلدة القديمة بعد تأهيلها (متحف تراثي مفتوح).

٤- إدماج المحافظة على التراث العمراني وحمايته في سياسات التنمية الوطنية والاقتصادية والاجتماعية.

٥- تفعيل دور البلدية، في محافظة العلا، للعمل على الحفاظ على التراث العمراني بالبلدة القديمة. وتؤتى أُكل هذا الدور بشكل إيجابي عند استحداث إدارة متخصصة في البلدية تعنى بالتراث العمراني والحفاظ عليه، وذلك لأن القطاعات البلدية، وبحكم مسؤولياتها، تأتي في أعلى الجهات الرسمية المسؤولة عن الحفاظ على هذا التراث (السواط ١٤٢٤هـ).

٦- تسجيل موقع البلدة القديمة ضمن قائمة التراث الثقافي العالمي. العمل على تسجيل هذا الموقع ضمن قائمة التراث الثقافي العالمي، وذلك لما يتميز ويتفرد به من قيم استثنائية (Out Standing Values) تتمثل في أصالة نسيجة المعماري، وطرزه المعمارية المتميزة، وذلك لضمان استمرارية واستدامة الحماية والحفاظ على معالم تراثه العمراني.

١٠- الخلاصة

تخلص الدراسة إلى العديد من النتائج جاءت محصلة الزيارات الميدانية العديدة التي قام بها الباحث لمنطقة الدراسة، ملاحظة وتوثيقاً وتحليلاً، والتي تتمثل في:

١- إن أهمية المحافظة على التراث العمراني في البلدة القديمة تتجسد في أهميته التاريخية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

٢- إن استراتيجية التخطيط العمراني للبلدة القديمة في العلا قد جاءت وفق الظروف الأمنية التي كانت سائدة آنذاك، بالتزامن مع الاستفادة من عوامل البيئة الطبيعية المحيطة لخدمة سياسة التوظيف، وتحقيق الغرض من الاستراتيجية، ويتمثل ذلك في الآتي:

اختيار موقع المدينة بدقة متناهية (الموقع العالي)، فقد شيدت حول هضبة أم ناصر بشكل متلاصق تفادياً للتعدي والمهاجمة. كما أن وقوعها في أعلى الوادي يشكل تفادياً لمخاطر العوامل البيئية الطبيعية (مياه الأمطار)، كما أن رصف الأزقة بالحجارة لتصريف مياه الأمطار يشكل حماية وتجنباً لهدم وانهيار البيوت والدور، مع الاستفادة منهما اقتصادياً في عملية الري.

تلاصق الوحدات السكينة وترابطها شكل سوراً يحيط بكل اتجاهات المدينة الجغرافية المختلفة، بحيث لا يمكن

دخولها إلاّ من خلال بواباتها المعروفة.

٣- تشكل الموارد البيئة الطبيعية (الحجارة والطين والأخشاب) عماد مكونات بناء العمارة في البلدة القديمة في العلا، وقد استطاع الفنان المعماري التقليدي توظيفها بطريقة مثلى في تشيدها باتباع طرق ووسائل بناء ذات فاعلية عالية.

٤- إن عناصر بناء الوحدات السكنية في البلدة القديمة بالعلا تتكون من مجموعة من العمليات البنائية المتداخلة والمترابطة (الأساسات، والجدران، والأعمدة، والدرج، والسقوف، والأبواب، والنوافذ، والدكة)، التي تشكل في النهاية العمارة السكنية التقليدية بمختلف وحداتها ذات الوظائف والأغراض المختلفة.

٥- تشير الدراسة إلى أن التراث العمراني بالبلدة القديمة في العلا تعرض ويتعرض للدمار والتهديد بالزوال والإندثار جراء المخاطر والمهددات الطبيعية والبشرية المتمثلة في: عوامل التعرية، وقيام الإنشاءات الجديدة (تشييد الشارع العام لمدينة العلا الحديثة أدى إلى هدم البوابات التي تقع في الناحية الشرقية من البلدة القديمة). هذا إضافة إلى قلة الوعي لدى المواطنين بأهمية مواقع التراث العمراني بالمنطقة.

٦- من أجل المحافظة على التراث العمراني في البلدة القديمة لابد من اتباع سياسة الحفاظ المتكاملة المقترحة في هذا البحث، المتمثلة في اتباع برنامج إدارة مواقع التراث العمراني كآلية مثلى لإدارة تراث منطقة الدراسة، هذا إضافة إلى تكامل وتضافر الجهود الرسمية، المتمثلة في الهيئة العليا للسياحة والآثار، وجهود المجتمع (المواطنين) التي تعنى بالتراث الثقافي من أجل العمل معاً على المحافظة على مواقع التراث العمراني في البلدة القديمة. مع العمل على تبني سياسة الاستدامة العمرانية لنسيجها العمراني وفق استخدمات جديدة بعد تأهيليها، مع التاكيد على اتباع الآليات والوسائل المقترحة في هذه الدراسة بغرض تحقيق الغاية المنشودة من سياسة الحفاظ المتكاملة للموقع حفظاً وتوثيقاً وصيانة وترميماً وتأهيلاً وإعادة استخدام لهذا التراث العمراني الوطني الذي يجسد تراث الأمة وماضيها وحاضرها واستشراف مستقبلها.

د. عبدالناصر بن عبدالرحمن الزهراني، رئيس قسم إدارة موارد التراث والإرشاد السياحي، كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

إبراهيم، محمد؛ الطلحي، ضيف الله وآخرون ١٤٠٦هـ، «تقرير حفرية المابيات الموسم الثاني ١٤٠٥هـ»، **أطلال**، العدد التاسع، ص٧١-٧٨.

إبراهيم، محمد؛ الطلحي، ضيف الله؛ جيلمور، مايكل؛ مرسي، جمال ١٤٠٥هـ، «تقرير مبدئي عن نتائج الاستكشافات الأثرية في موقع المابيات الإسلامي الموسم الأول ١٤٠٤هـ»، **أطلال**، العدد التاسع، ص ١١٣-١٢٣.

أبو الحسن، حسين بن علي دخيل الله، ١٤٢٣هـ، **نقوش لحيانية من منطقة العلا (دراسة تحليلية مقارنة)**، وكالة الآثار والمتاحف، الرياض.

أويتنج، يوليوس، ١٤١٩هـ، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، ترجمة: سعيد السعيد، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ط١.

الإدارة العامة للآثار والمتاحف، (د. ت) **المناطق الأثرية بالعلا ومدائن صالح، الكتيب السياحي الإدارة العامة للآثار والمتاحف**، وزارة المعارف المملكة العربية السعودية.

الإدريسي، محمد، ١٤٢٢هـ. **نزهة المشتاق واختراق الأفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

الإمام، صالح بن أحمد عبدالرحمن، (د. ت)، **العلا عادات - تقاليد - حضارة - تاريخ**. «د. ن».

الأنصاري، عبدالرحمن، وحسين أبو الحسن، ١٤٢٣هـ، **العلا ومدائن صالح**، دار القوافل، الرياض، ط ١.

ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، ١٣٩٩هـ. **الرحلة**، تحقيق الدكتور علي بن المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط٥.

البعلبكي، الدكتور روحي، ١٩٩٤م، **المورد قاموس عربي إنجليزي**، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦.

البنا، السيد محمود، (د. ت)، **المدن التاريخية خطط ترميمها وصيانتها**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

البيني، ماركو، ١٤١١هـ، **العمارة التقليدية في المملكة العربية السعودية (المنطقة الوسطى)**، ترجمة: أسامة محمد نور الجوهري، الإدارة العامة للآثار والمتاحف، وزارة المعارف، الطبعة الثانية.

الجزيري، ١٣٨٤هـ، درر الفوائد، المكتبة السلفية، ط١.

جلبي، أوليا، ١٤٢٠هـ. **الرحلة الحجازية**، ترجمة وتحقيق الدكتور الصفصافي أحمد المرسي. دار الأفاق العربية، القاهرة.

جوسن، أنتوني؛ وسافينياك، رالف، ٢٠٠٨م، **رحلة استكشافية أثرية إلى الجزيرة العربية، الجزء الثاني، القسم الأول**. ترجمة صبا الفارس، مراجعة سليمان الذييب وسعيد السعيد، دارة الملك عبدالعزيز، تحت النشر.

الحجيري، إبراهيم بن سعد، ١٤٢٢هـ، **حياة الأجيال في عروس الجبال العلا**، «د. ن».

الحربي، د. محمد حمد خليص، ١٤٢٧هـ، «القيمة المعمارية لمباني مدينة العلا القديمة (الديرة)»، **مجلة العرب**، تصدر عن دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، الرياض، ج ١١و ١٢، س ٤١، الجماديان ١٤٢٧هـ. ص ٩٣٩-٩٥١.

الخياري، إبراهيم بن عبدالرحمن، ١٩٦٩م، **تحفة الأدباء وسلوة الغرباء**، تحقيق: رجاء السامرائي ج١، بغداد.

الذييب، سليمان بن عبدالرحمن ١٤٢٦هـ، **نقوش نبطية في الجوف، العلاء، تيماء: المملكة العربية السعودية**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

ابن رسته، أحمد بن عمر، ١٨٩٢م، **الأعلاق النفيسة**، مطبعة بريل، ليدن، ط١.

الزهراني، عبدالناصر بن عبدالرحمن، ١٤٢٩هـ، مفهوم الحفاظ على التراث ومدلولاته، لم ينشر بعد.

الزهراني، عوض بن علي السبالي، ١٤٢٨هـ، **تل الكثيب بالعلا دراسة أثارية مقارنة**، وزارة التربية والتعليم، وكالة الآثار والمتاحف.

السواط، علي محمد، ١٤٢٤هـ، «دور البلديات في الحفاظ على التراث العمراني في المملكة»، بحث مقدم في **ندوة التراث العمراني الوطين وسبل المحافظة عليه وتنميته واستثماره سياحياً، الرياض، ٤-٧ شعبان ١٤٢٤هـ.**

شاهين، على الدين علي، ١٤٢٨هـ، «الحافظ على المناطق التاريخية: تجارب بعض الدول العربية والكويت»، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**، ١٢٥، ص ص ٩٩-١٣٦.

الشيباني، محمد عبدالهادي، ١٤٢٤هـ، التراث العمراني في العلا وسبل المحافظة عليه، بحث مقدم في **ندوة التراث العمراني الوطني وسبل المحافظة عليه وتنميته سياحياً، الرياض ٤-٧ شعبان ١٤٢٤هـ.**

شويكان، سالم محمد حسين، ١٤٢٤، **العلا مهد الحضارات والتاريخ القديم**. «د. ن».

الاصطخري، إبراهيم، ١٩٢٧م. **مسالك الممالك**، مطبعة بريل، ليدن، ط١.

عبدالكريم، أحمد عبدالله أحمد علي، ١٤١٤هـ، **هذه هي العلا بين الماضي والحاضر**، مراجعة وإخراج محمد سعد الحجيري، الجمعية التعاونية المتعددة الأغراض بالعلا، الرياض.

علي، جواد، ١٩٧٨م، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم، بيروت، ط٢.

العمير، د عبدالله بن إبراهيم وآخرون ١٤٢٧هـ، «حفرية مدينة قرح

(المابيات) الإسلامية بمحافظة العلا الموسم الأول لعام ١٤٢٥هـ»، أطلال، العدد التاسع عشر، ص ٢١٧-٢٥٢.

العمير، عبدالله ابن إبراهيم، ١٤٢٨هـ، «العمارة التقليدية في نجد»، **دراسات آثارية** (٤) سلسلة علمية محكمة تصدرها الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض.

العنزي، زبن، ١٤١٦هـ، **معجم وتاريخ القرى**، ط١.

عودة البريكيت ١٤٢٨هـ. هو من استعان به الباحث في معرفة الأماكن والبوبات والطرق البناء في البلدة القديمة، إضافة إلى الأستاذ مطلق بن سليمان المطلق نائب مدير متحف العلا.

الغرفة التجارية الصناعية، ١٤٢٤هـ، «توجهات القطاع الخاص نحو الاستثمار في مواقع التراث العمراني». مركز البحوث والدراسات، بحث قدم في **ندوة التراث العمراني الوطني وسبل المحافظة عليه وتنميته سياحياً، الرياض ٤-٧ شعبان ١٤٢٤هـ**. الإدارة العامة للبحوث والتدريب والمعلومات، الرياض.

الفقير، بدر بن عادل، ١٤٢٧هـ، **السياحة في محافظة العلا: موارد الجذب ومعوقات التنمية، دراسة في الجغرافيا السياحية**، مركز بحوث كلية الآداب، عمادة البحث العلمي، جامعة الملك سعود.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، ١٤٠٧هـ، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط ٢، بيروت.

الكتاب المقدس (العهد القديم، والعهد الجديد). ١٩٩١م. دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

الكرمي، حسن سعيد، ١٤١١هـ، **الهادي إلى لغة العرب**، ج ١، «د. ن».

كرونين، ج.؛ روبنسون، و.، ١٤٢٦هـ، **أساسيات ترميم الآثار**، ترجمة عبدالناصر الزهراني، جامعة الملك سعود للنشر العلمي.

لين، فاخوري، ١٩٩٧م، «الموروث العمراني والسياحة. **المؤتمر الأردني الأول للحافظ على الترث المعماري**. عمان، الأردن.

المالكي، قبلية فارس، ٢٠٠٤م، **التراث العمراني والمعماري في الوطن العربي، الحفاظ، الصيانة، إعادة التأهيل**. الوراق للنشر والتوزيع، عمان.

المحفوظ، الدكتور إبراهيم بن سلمان، ١٤٢٢هـ، **مقاهي العشائر في العلا بمنطقة المدينة المنورة**، «د. ن».

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠م، **صيانة التراث الحضاري**، تونس.

موسيل، أ.، ١٩٨٨م، **شمال الحجاز**، ترجمة: عبدالمحسن الحسيني، مؤسسة الثقافة، الإسكندرية، ط١.

نصيف، عبدالله آدم ١٤١٦هـ، **العلا دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي**، الرياض «د. ن».

النويصر، محمد بن عبدالله، ١٤١٩هـ، **خصائص التراث العمراني في المكلة العربية السعودية «منطقة نجد»**. دارة الملك عبدالعزيز.

ابن هشام، عبدالملك، ١٣٧٥هـ، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة الحلبي، القاهرة، ط٢.

وزارة الشؤون البلدية والقروية، ١٤١٩هـ، **التراث العمراني في المملكة العربية السعودية**، وكالة الوزارة، الرياض.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

Cooke. G. A. 1926. **A Textbook of North Semitic Inscdriptios**. London.

Doughty. C. 1921. **Travel in Arabia Deserta. Cambridge 1888**. 3rd Edition. London.

Healey. J. F. 1968. The Nbataeans and Mada•in Salih. In Alal. **The Journal of Saudi Arabian Archaeology**. Vol. 10. P. 108-116.

Parr. P.. Harding. G. L. لله Dayton. J. E.. 1970. Preliminary Survey in North – West Arabia 1968. **Institute of Archaeology**. Bulletin Vol. 8-9. p.103-242.

Winnett. F. V. لله Reed. W. L. 1970. **Ancient Records From North Arabia**. Toronto: University of Toronto Press.

ثالثاً: الشبكة العنكبوتية:

للرجوع إلى ميثاق البندقية ١٩٦٤م، ١٩٩٦م ايكموس:

http://www.international.icomos.org/centre-documentation/chartes-eng.htm